التكامل في الإسلام

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل، باذن الله، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح، (لا الظنون والأهواء!)

بقلم

أحمد أمين

خريج كلية التربية وجامعة استنبول

الجزء الأول

دار المعرفة

بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي عليه السلام:

عباد الله زِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا. وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عُنف السياق. واعلموا أنه مَن لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وصلى الله على أفضل خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد،

إن الانسان في عصرنا اليوم، قد اختمرت في ذهنه جملة من الأسئلة والشكوك، وما يؤسف له أن هذا كله يتم دون محاولة منه التحرك والتحقيق والبحث للوصول إلى الحقيقة، حتى تحولت إلى شكوك اجتماعية وقف منها القيّمون على الشأن، موقف الصمت، دون التوجيه لتبصّر أسبابها ودوافعها ودراسة المواضيع التي أثيرت حولها تلك الشكوك والمسائل.

إن عصرنا اليوم عصر الاضطراب السياسي والاجتماعي، عصر التردد والانقسام الثقافي والروحي، عصر التغير والتبدل العقائدي والايديولوجي.

إن عصرنا اليوم عصر التيارات الفكرية المتصارعة المستندة والمدعومة من قوى ومؤسسات بدورها تستند إلى تنظيم يدفعهافي مختلف الاتجاهات.

هذه الآراء والتيارات تغلّفت برداء العلمية والتقدم والتنظيم الاقتصادي فخلبت ألباب كثير من الناس.

هذه التيارات وجدت كلها لمحاربة الاسلام وقد استخدمت كافة الأساليب الملتوية ومارست وتمارس شتى أنواع الخداع للوصول إلى أهدافها.

إن إيصال كلمة الحق اليوم إلى أذهان الناس وعقولهم، عمل ليس باليسير، بعد هذا الغزو المنظم، وفي ظل هذا الانحراف الخطير، وفي خضم هذه الفِكَر الوافدة التي فرزتها مختلف التيارات والتي طالت جوهر عقيدتنا، بل تعدتها إلى النفس الانسانية في الصميم.

هذه الفِكَر والنظم عششت ونمت في المجتمع الغربي، فأخرجته عن فطرته الانسانية وسلخت النفس هناك صفاءها ونقاءها، ومنذ أجيال بعيدة، حتى أصبح الانسان محكوماً بتوجه مادي محض.

ولا ننكر أن هذا الانسان قد استطاع أن يحقق درجات مهمة من التألق والتقدم في مجالات مادية عديدة كالاقتصاد والعلوم وغيرهما لكنه إنطلق بعيداً عن سمو الذات الانسانية التي أضاعتها وغمرتها إنتصارات واكتشافات التطور المزعوم والتقدم العلمي الموهوم.

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. إن العلوم الحديثة، رغم ما حققته بقيت ضيقة، مبتورة، وناقصة لأنها لم تعتنِ بتنمية السلوك الإنساني ولا بإعداد النشء ولا بتطهير النفس، ولا بتطوير حياة اجتماعية لممارستها في تكوين وإيجاد مجتمع سليم تسوده المحبة والتعاون.

ولم يتطلع، الأوروبي، والغربي عموماً، إلى نفسه إلا من خلال شهواتها وغريزتها وحيوانيتها فاعتبر أن لكل زمن منطقاً ودساتير وقوانين تتغير وتتبدل حسب ميول الناس ورغباتهم.

واعتبر أن لا تسافل ولا تكامل، بل التكامل ما عليه الناس اليوم، وما هو عليه واقعهم، وما هي عليه عاداتهم وتقاليدهم وسبل معيشتهم.

ولقد بلغ من السخافة والجهل وعدم الاطلاع مرتبة ينكر معها الحقائق الأصلية، والعلم الصحيح الذي يهدف إلى تربية الانسان مادياً وروحياً، لنقص متأصل فيه منذ أن اقتلعت نفسه من فطرتها.

هذا النقص الذي أحاط به فسلبه عقله وأضاعه وقد أصبح منذ زمن طويل ينفذ رغبات النفس الأمارة بالسوء والتي مهما أوتيت من عقلٍ وتدبير وتفكير فهي محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

ولعب العقل دور المدبر والمنفذ لمتطلبات تلك النفس الغارقة في الشذوذ فابتعد في تقييمه وتحليله واستنتاجاته عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب

البحث واعتمد في ادعاءاته على السفسطة والخيال وابتدع نظريات ومفاهيم لا يدعمها العلم الصحيح، بل إن العلم منها براء.

وقد بلغ الانسان من التسافل مرتبة لم يعد يشعر معها بما هو فيه من تردٍ مرير. بل لم يكتف بهذا الحد فاستهزأ بمن لم يوافقه سلوكه وهذيانه، وافتراضاته، وبمن اعترض وحاكم نظرياته فوصمه بالرجعية والجهل والتخلف. متناسياً قوله تعالى: ﴿. . . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ وفيه صح قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه، فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكِنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى، فلن يهتدوا إذن أبداً﴾. وقوله في آية كريمة أخرى: ﴿. . . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

وبذل جهوداً مضنية للدفاع عما أسماه بالمدنية والتي رأى فيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكارٍ خرافية لا تتلاءم ومفاهيم ونظم القرن العشرين.

هذه الجهود لم تسهم في معالجة النواحي الأخلاقية التي تعاني منها المجتمعات فأدت إلى انهيار اخلاقي شبه كامل وانحلال اجتماعي أودى بحياة الانسان إلى التسافل والانحطاط.

بهت الشرق من تقدم أوروبا الاقتصادي، واعتقد خطأ، أن تقدمها هذا إنعكس تطوراً وسمواً وتكاملاً في حياة مجتمعاتها العلمية والروحية والانسانية فظن تقديماتها صحيحة واعتبرها دفعاً له وناصراً نحو الانفلات والتحرر والانعتاق من عهود التخلف والظلم.

فاستقى من فلسفاتها الكثير، وإقتبس من نظرياتها، المغلفة بشعارات العدالة والمساواة، القشور والسفاسف قبل أن يمحص وينقب فيأخذ المهم منها.

دب التبلبل في الشرق وتشتت الأفكار والآراء، فنسي الانسان نفسه التي تدانت إلى أسفل سافلين وهي على كلٍ أقرب إلى التأثر بالقذارة والفسق أكثر منها تطلعاً إلى السمو والعلى.

تأثر الشرق بتقاليد أوروبا فابتعد عن روحياته التي تسمو به نحو كمال يكون فيه الانسان أعلى منزلة من الملائكة فترك لنفسه العنان حتى صح فيه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

هذه البلبلة الفكرية التي غمرت الوسط الاجتماعي، الشرقي والاسلامي، لم ينج منها بعض العاملين في الحقل الفكري والذين تصدوا لطرح الفكر الاسلامي وبلورته ومنهجته. ففسروا الشريعة والعقيدة وقدموها متأثرة بالسموم والأفكار التي تفاعلت في أذهانهم ومفاهيمهم فجاءت تفسيراتهم واجتهاداتهم فارغة من كل محتوى، بل أفرغت الدين من محتواه الانساني والروحي وما يرمي إليه من تربية النفس الانسانية وتهذيبها وإبلاغها إلى أرقى درجات كمالها وتعميق معرفتها لتقترب وتدنو من الله.

وقد نسي هؤلاء أن القوانين والنظم التي ترشحت من الاسلام إنما هي قوانين ثابتة وصالحة لحل مشاكل الانسان، وترد على حاجاته ومتطلبات حياته في كل زمان ومكان.

وامتد التأثير إلى الشبيبة المثقفة بثقافة العصر، وهؤلاء قد التبس عليهم أن التقدم الاقتصادي والمادي والعلمي وحتى النبوغ في هذا المجال لا علاقة له بتربية النفس وكمالها. فالنبوغ في معالجة أمراض النفس وتربيتها وإيصالها إلى حقيقتها، إلى معرفة الخالق عز وجل.

واعتبر هؤلاء أن الدين، دينهم، دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وهو لا يصلح ولا يستطيع أن يحقق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات التقدم والرقي.

وقد تركز في عقولهم أن ما طُرح من نظريات أمامهم مؤكدة الصحة، فنفوا احتمال نقضها، أو تبدّلها ولم يدركوا أن كل ما نصادفه من تصورات العقل البشري وإدراكاته نسبي يحتمل الصحة والبطلان وليس صادقاً تماماً. ولم يدركوا أن قصورنا عن ادراك الحكمة، والوصول إلى قوانين علمية معينة، لا يعني انتفاءها وإنما يعني أننا بمستوانا الذهني قاصرون عنها حتى يأتي الوقت المناسب لادراكها.

وقد غاب عن هؤلاء أيضاً أن الايمان التقليدي مردود ومرفوض وأنه يجب الوقوف على أصول الدين بالبرهان العقلي والدليل المنطقي فتنتفي عندئذ حجتهم بأن الدين لم يصل إلى مستوى تقديم الحلول للمشاكل العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها الانسان.

ونسي هؤلاء أو تناسوا، أن نبوغ أوروبا وتقدمها في مختلف المجالات وحتى العلمية منها، لم يرقَ بالنفس الانسانية ولم يهذبها بل ساهم في تحطيمها وتدنيسها فانزلقت، وتاه مع انزلاقها العقل وإبتعد بها عن معرفة الله. «فليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل» كما روي عن الامام الصادق (ع): «أن رواة العلم كثير، ورعاته قليل» كما نقل عن الامام علي (ع).

إن العمل الصادق المخلص من أجل قلع واجتثاث الخرافات والأباطيل التي لوثت بل دخلت عمق جذورنا. لضروري تكثيفه.

ونحن نبذل قصارى جهدنا، في مضمار صد ما انزلق إليه الفكر وما لوثت به أحكامنا... ونرى في ذلك قضاء لبعض الواجب.

والتزاماً منا في متابعة الرحلة الصعبة الطويلة لنشر الكلمة الحق ومساهمةً في محاولة تطهير النفس من الأدران التي علقت بها بوحي قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير...﴾.

واليوم، إلى قارئنا الكريم، إلى شبابنا المثقف الذي تاه وبهرته المظاهر البراقة الفارغة من أي محتوى.

نقدم كتاب ـ التكامل في الاسلام ـ هذا الكتاب الذي ارتفع فيه مؤلفه بالانسان إلى المكان اللائق الذي يجب أن يكون فيه من سمو النفس وكمال الروح معتبراً أن حياته تجربة واستعداد وتهيؤ وأنها ليست إلا لحظة من لحظات الأبدية. وما هي إلا امتحان لصبره عندما يجيء ذلك اليوم الذي يقف فيه على أعتاب الآخرة.

ابتعد في معالجته عن التعصب والغوغاء وبرهن أن الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن العصبية والخيال.

في موضوعاته أعطى العقل الدور الأهم في حياة الانسـان من خلال هدايته له وإيصاله مهتدياً به إلى أحسن وأفضل السبل للاعتراف بوحدانية الخالق.

ولم يقصر، بل رد على مستغلي الانسان وموجهيه الوجهة المادية والذين استعملوا العقل لاهداف ابتعدت بالانسان في مجاهل تردي حياته الاجتماعية والخلقية. ولم تكن ردوده غوغائية وبعيدة عن المنطق السليم فقد اعتمد ما استطاع آيات كريمة من القرآن الكريم، وأحاديث شريفة تضع العقل في صدر معالجة الانسان لما اعترضه وما قد يعترضه من مشاكل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

إلى أن انتهى بموضوع العقل فاعتبره السلّم الذي يتدرج به الانسان إلى السمو والتكامل. ﴿ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾. وما نقل عن الامام علي (ع): «ما عبـد الله بشيء أفضل من العقل».

وعالج فيما عالج قضية النفس الانسانية وتكـاملها، واعتـرض محاكـماً المجتمعات الغارقة في الفساد، والتي تحطمت فيها النفس الانسانية فهوت إلى أدنى مراتب الفجور.

فاعتبر أن قضية الاعتراف بالخالق ليست قضية منطقية وعلمية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية الأصيلة، حتى أنه اعتبر انها بحث نفسية لا أثر للمنطق فيها.

وأوضح أن غاية العلم مهما تألقت وسمت فـدورهـا ينحصر أساساً في الارتقاء بالنفس الانسانية وإيصالها إلى الله، والعمل بما يرضيه، حيث النور والسعادة الأبدية والحياة.

وخلص إلى أن الايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، إن لم يخضع هـذه الايمان والنفس معـه إلى امتحانات دقيقة وصعبة إن تغلبت وانتصرت فيها النفس وابتعدت عن المعاصي والآثام والشرور، عندئذ تسمو فتتكامل. وأوضح أن الدين الاسلامي يربي

المسلم بصورة عملية من خلال اهتمامه بشتى نواحي حياته المادية والروحية والأخلاقية. فإنه إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» روي عن النبي (ص) ليؤكد إهتمام الدين بتربية الانسان ليصل به إلى الكمال.

فالدين الاسلامي دين صناعة النفس، وتكوينها وهو يهدف إلى إبلاغها أعلى مراتب التكميل بمعرفتها الله.

أخي الكريم،

نقل عن الامام علي (ع): «إن البحث عن العلم جهاد، وسلاح على الأعداء، ونور الأبصار من العمى، وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد».

تدعوك لقراءة هذا الكتاب... لعله ينير أمامك الطريق ويسد بعض الثغرات... ويجيب على بعض الأسئلة والشكوك.

لعله يزيل بعض الأوهام التي علقت في الأذهان.

لعله... كما نستنتج من قوله تعالى:

﴿... إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

﴿... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

لعلنا نوفق في الوصول.

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل؛ ويوفقنا لمتابعة الطريق...

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا صفت النفس الانسانية مما علق بها من أدران وأوساخ، ونظر الانسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه لرأى أنها برمتها ترمي إلى تكميل النفس الانسانية وإبلاغها إلى أسمى مراتب الكمال، كمال منَّ الله تعالى به على البشر، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾، ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير (وأعني به: التفكير في العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيويةِ المنجية وأعني بها تطبيق الدساتير الاسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحليل الربا والنظر إلى ما حرّم الله تعالى أو. . . حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسي، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا إليه من حالة قدسية حديثة، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. فقد جاء في الحديث: «الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين». وان الله تعالى يقول: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم﴾. ولكن هيهات. لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له، على الأقل، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين إلى حين. ان الله تعالى يقول: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من تبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾. فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشي الرحمن في خلواته ولو قليلاً: هيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه، فلم يشرب، أو كان وصولاً لأمه وأبيه، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر، أو كان عطوفاً على جاره ببعض ما يتمكن منه إلى غير ذلك.

ولكن انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لا يبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً.

«ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون».

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الانسان وسعادته الأبدية. حتى أنه ليستسخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافات. أنه قد عمى قلبه فأمسى لا يبصر شيئاً. ﴿وإن أعمى العمى عمى القلب﴾ كما في الحديث. ان الله تعالى يقول:

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾. ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي إلى الضلال ولا يقسو القلب إلا من ارتكاب الجرائم.

إن الله تعالى يقول: ﴿أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ ولا يأتي هذا العمى إلا من جراء الفسوق. ولا يأتي الكفر إلا من جراء الفجور. لقوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

إن القلب ليصدأ من جراء المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، لقوله تعالى: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

وإن هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس، كما أن هناك تلازماً بين المعاصي وتسافل النفس. فلا يجزى الانسان إلا من نوع عمله. صالحاً أو فاسداً ان الله تعالى يقول: ﴿إنما تجزون ما كنتم تكسبون﴾.

وفي آية أخرى: ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾.
وفي أخرى: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

وإن هذا الحجاب الحاجز عن رؤية الحق قد يكون كثيفاً إلى درجة يجعل صاحبه ساخراً من الذين آمنوا متهماً إياهم بالخرافة والرجعية، والواقع ان الرجعية هي الرجوع عن الحق إلى الجاهلية الجهلاء. ان الله تعالى يقول:

﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾.

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لاجرامهم السابق. ثم يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وإذا مرُّوا بهم (أي بالمؤمنين) يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين﴾.

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم عن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه.

﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

نعم، فقد ذهبت عقولهم، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الانسان، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل. ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه. إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً» (٥٧ ـ سورة الكهف).

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة، أغطية وأستاراً حتى أمسوا لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها وإصلاحها. إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾.

ومعنى ذلك: أن تماديهم في فسوقهم جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبي

لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم (ع) نبياً. لتسبق الهداية الخلق اهتماماً بأمر تكامل البشر. ولكنهم لكثرة ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون، فلا يفيد فيهم النصح والهداية. إن الله تعالى يقول: «ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. أي أن التمادي في الجرائم والموبقات حجبت الأنوار الإلهية عنهم حتى صاروا لا يفكرون في مصيرهم موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده حتى جاء في الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب عليه). فالله تعالى قد أفاض برحماته على البشرية جمعاء. ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج عن طاعته. أنه يقول:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

وإن ما يصيب الانسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و. . . إنما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه. فهي رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب. وفي الحديث: ﴿ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر﴾ وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج إلا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة. ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال إلا به. وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول‌الله (ص) ان الله تعالى يقول: ﴿وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه وأما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة﴾.

دين الاسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع. تكامل في عالم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب. ذلك لأنّ الانسان انسان بنفسه وروحه وليست المادة من حقيقة الانسانية في شيء.

لذلك جاء في الحديث (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي قال رسول الله (ص): «ما اتقى الله امرؤ إلا جعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب». والتزكية هي نوع تكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً. إن الله تعالى يقول: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. وفي آية أخرى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾.

فالعمل بما أنزل الله مؤدٍ إلى التزكية والتطهير. وإعطاء الزكاة مزكٍ للمال ومزكٍ للنفوس. والكفارات ورد المظالم مزكية للنفوس عن الذنوب. والحدود والقصاص كذلك. وكلها مراحل يدرج فيها الانسان في ساحات الكمال. ساحات ليس لعقولنا أن تحدَّها. فالكمال الذي منَّ الله به على الانسان كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى. حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. وذلك باذنه تعالى كما كان لأنبيائه (ص) وأوصياء أنبيائه (ع) باذنه تعالى. وينحط الانسان في أودية الضلال والتيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. (١٧٨ : آل عمران). ان الله تعالى يقول: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

أنظروا إلى هٰذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الاسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من استوى يوماه فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون. ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله. ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الاسلامي الذي أخذ

يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية «ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الامارة بالسوء. ان الله تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.

وعن الامام موسى بن جعفر (ع) عن أبيه أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه». وفي حديث علي عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

إن الله تعالى يقول: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. كل ذلك يشير إلى أن درجات الهداية والكمال درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها: ﴿هم درجات عند الله﴾. (١٥٧: آل عمران) وفي آية أخرى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾. (٢: سورة الأنفال).

فالمؤمنون متفاوتون في درجاتهم عند ربهم حسب مراتب تكاملهم النفسي. تكامل ليس للانسان أن يحيد عنه، فإذا حاد عنه رجع إلى تسافل حيث لا تسافل بعده. وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة. وكان من الذين خسروا أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (١٠٤: الكهف) فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها. لأن الله لا يريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق. فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تعقم بالماء المغلى هكذا الجراثيم البشرية تعقم بالنار. ونستجير بالله من ذلك.

فأنت أيها القارىء الكريم ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في

الدين الاسلامي من أحكام، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال أو سمعة، وترى كيف تنقشع أمامك بعضُ الشبه التي أولدتها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات.

وبالختام أسأل الله تعالى أن تستفيد الشبيبة بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم إلى العمل بما أمر الله تعالى خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم فيرون أنفسهم في عالم من القدسية بعيد عن حدود الوصف والبيان. وأن يمنَّ عليَّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال تتناول عملية تكامل الدين الاسلامي للنفوس البشرية التائهة لا سيما في عصر طغت عليه المادة، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات. فأصبح الرجل الديني مهيناً ممقوتاً وذنبه أنه يعبد الله تعالى، مؤتمراً بما أمر الله، متناهياً عمّا نهى الله، والمتجاهر بالفسق موقراً محبوباً. وليعلم الشاب أن الدين الاسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الانسانية والمجتمع الانساني، وان العمل بنصوص الدين الاسلامي يؤدي إلى تكامل في المعارف الإلهية وإلى تكامل اجتماعي. قال علي (ع): «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس أن أكيبكم أكثركم للموت ذكراً وأن أحزمكم أحسنكم استعداداً له. وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور».

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين.

* * *

لماذا وجدنا؟

سؤال يتبادر إلى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت إليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته. فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونتلذذ في هذه الحياة ونفنى. لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً. فيسعى ليأكل لذيذاً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً. وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم. ومنهم من يقول: وجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه. وقد يكون هو أحوج الناس إلى الاصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس. ومنهم من يقول وجدنا للشقاء. فالحياة كلها شقاء. فهو متشائم معذب. ونريد الآن أن نتحقق عن السبب الذي وُجدنا لأجله. فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة. لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة.

لننظر إلى ما حوالينا من نبات وحيوان وجماد. نرى أنها كلها خلقت لأجلنا. هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفة والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذي والتداوي إلى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[1]. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[2].

---

(١) أي: ترعون ماشيتكم. ذرا: أي خلق مؤاخر: أي جارية في الماء.

(٢) سورة النحل: ١٠ ـ ١٤.

وأما الحيوانات فقد سخّرت لنا للأكل والركوب والستر. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد من تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم﴾.

وأما الجماد فسخّر لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لا تعد. يقول الله: ﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات، فلماذا خُلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخرين لموجودات أخرى. وكلها مسخرة لنا، إذن ما الغاية من وجودنا؟.

مع العلم أن الذي خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع، الذي نظم الأفلاك بدساتير رصينة رياضية متقنة يحار فيها علماء الفلك العالي، الذي شكّل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة. أشكال مجسمة منتظمة الوجوه، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً.

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾. ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾.

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل زاوية من زوايا الكون. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾. فكيف يجوز على الله أن يخلق الانسان ويخلق لأجله جميع ما حواليه ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله.

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الانسان غاية دقيقة وهدفاً عالياً يجب أن نتحراه. نرى أن ما حوالينا من الأشياء في غاية الكمال: فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه. والذرة كاملة غاية الكمال: الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام. يتجاذب الجسمان بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً في النسبة الثابتة. ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جل جلاله في هذا الكون، لأمكن إملاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله أن الله عزيز حكيم﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسّبح بحمده﴾.

فكيف يجوز على الانسان أن يحيد عن سنّة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل.

للانسان جنبتان: جنبة مادية وهي البدن الذي رسمه الله تبارك وتعالى واتقن صنعه. فيه حركات غير إرادية لا دخل للانسان فيها. وجنبة روحية هي حقيقة الانسانية وهي الانسان حقاً. فالانسان انسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه. نعم، لقد بلغ المذهب المادي في أوروبا في القرن التاسع عشر إلى حد قال أحد رجال المادة فيها: ان الانسان يساوي كذا غراماً من الأزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الاوكسيجين وكذا غراماً من الكالسيوم. . . الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيء! . . .

والفرق بين تكامل الإنسان الروحي وتكامل المادة بأن كمال المادة كمال قسري قهري وكمال الانسان الروحي كمال اختياري.

اتضح مما ذكرنا أن الانسان خلق ليتكامل. والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي؟ وهل هذا الانسان المملوء من الشهوات؟ وهل هذا الانسان